نظم ضمان الجودة في فكر الامام علي "ع" (دراسة في رسائل نهج البلاغة)

أ.م.د. حميد سراج جابر

جامعة البصرة/ كلية التربية

تتناول الدراسة التي بين ايدينا مفهوم أصبح حديث الساعة في الكثير من المؤسسات على اختلاف أشكالها لأنه قد يرسم الأسس الصحيحة في النهوض بهذه المؤسسات، وهذا المفهوم يعرف باسم الجودة أو نظم الجودة أو النظم الضامنة للجودة، بيد أن الاجتهادات في بيان المفهوم قيد الدراسة قد تكون أفرغته من محتواه وذهبت إلى تفاصيل زادت الامر تعقيد، فكانت الحاجة ملحة إلى إيجاد صورة مثالية لتطبيقات هذا المفهوم ولعل نظرة الإسلام لهكذا موضوع هي الصورة المثلى.

وحينما نريد تطبيق هذا المفهوم بوضوح أكثر يجب أن نختار الرمز المناسب، الذي يجسد مفهوم الإسلام وهو الإمام علي عليه السلام والذي تعلم من الرسول صلى الله عليه واله وتربى في حضنه، وهنا نجد إن الرسائل التي عرفت عن الإمام علي عليه السلام والتي أرسلها إلى عماله وولاته والى آخرين هي خير كاشف عن مفهوم الجودة في فكر الإمام علي عليه السلام لا سيما وإنها قد جمعت في نهج البلاغة.

بقي أن نذكر إن استخدام لفظ الجودة في الحديث عن كلام الإمام علي عليه السلام هو لموافقة المفهوم في عصرنا الحاضر فلم يكن هذا المفهوم بنفس اللفظ إلا أن المعنى موجود والجودة والإجادة وما شاكلها كلها أمور تقع في خانة واحدة ولا تخرج عن الإطار العام لما نريد دراسته أو الإشارة إليه في هذه الدراسة التي بين أيدينا.

وأول الجوانب أو المحاور التي ستتم دراستها هي محاربة الفساد المالي والإداري في فكر الإمام علي عليه السلام من خلال الرسائل التي ذكرناها، وفي مقدمة المباحث موضوع التوعية الثقافية والتأسيس لبناء مالي رصين بمنع جملة من الأمور ووضع جملة من الشروط، وكذلك دراسة كيفية بناء نظام إداري متكامل يقوم على الصدقية والمساواة ومنع الاستبداد.

كما تناولت الدراسة أيضا" في محورها الثاني الاستناد على النظم والمبتنيات الدينية والاخلاقية في ترسيخ نظم الجودة في نظر الإمام علي عليه السلام إذ قام هذا المحور في مبحثين الاول تناول أسلوب التعامل مع المحكومين، فيما تناول الثاني موضوع طبيعة الحكم وأسلوب الإدارة الناجح في فكر الامام علي عليه السلام.

هدا فضلا" عن دراسة الكثير من الضوابط والقواعد الجانبية التي حددها الامام علي عليه السلام لتكون اساس في الإدارة الناجحة، وغيرها الكثير، إذ أن الدراسة زاخرة بالمعلومات التي توضح فكر الإمام علي عليه السلام فيما يتعلق بما يسمى اليوم نظام الجودة الشاملة بمرادفاتها المتعددة.

أولاً: التوعية والتثقيف في محاربة الفساد المالي والإداري

المبحث الأول

بناء مرتكز ثقافي والتأسيس لبناء مالي رصين

من الطبيعي ان تكون الاساسات أو المرتكزات التي تتحكم بنظام ما هي المسؤولة عن قيامه أو عن انهياره، وكلما كانت هذه الاساسات مبنية وفق اسس علمية كان البناء اكثر متانة، ولا يتعلق هذا بالجانب المادي فقط وانما يشمل الجانب المعنوي أو ما يخص الخطط والافكار، ومن هنا فأن دراسة الكيفية التي حارب بها الامام علي عليه السلام الفساد المالي والإداري بالاستناد الى رسائله التي وجهها الى عماله وغيرهم تحتم علينا دراسة البناء الرصين ونقصد في المجالين المالي والإداري الذي ركز عليه.

ولو نأتي الى البناء المالي لوجدنا انه وضع اسس عامة يقوم عليها هذا البناء اولها نشر الوعي والثقافة التي تؤهل لبناء مالي أو إداري رصين وما دمنا بصدد الحديث عن النظام المالي يمكن القول انه عليه السلام اراد نشر ثقافة اخلاقية وطنية تقوم على جملة أمور ابرزها التثقيف لنبذ الاثراء الفاحش لانه يعود بالضرر على الفرد نفسه والمجتمع لذا نجده يوصي ابنه الامام الحسن عليه السلام بالقول ((ولا تكن خازنا لغيرك))[١]، وبذلك فان الإمام علي (ع) قد نهى عن اكتناز الأموال المادية والعينية[٢]، وهذا ما يتناغم مع النفس القرآني في قوله تعالى ((والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم))[٣].

وكلام الامام عليه السلام فيه اكثر من مغزى في اطار موضوعنا عن البناء المالي الرصين واشاعة ثقافة الجودة فيه ويمكن إجمالها بما يأتي:

١- بعد اخلاقي يتعلق بالتكافل الاجتماعي وتوزيع الثروات بشكل عادل.

٢- بعد مستقبلي يتعلق بتوريث هذه الاموال للغير على الرغم من الحرمان منها.

٣- بعد إداري باعتبار ان الامام الحسن عليه السلام كان يمثل قيادة وان كان في زمن ابيه عليه السلام فضلا" عن الجانب المستقبلي.

٤- بعد تعليمي لكون كلام الامام عليه السلام شمولي لا يتعلق بعصر وانما هو موجه من خلال الامام الحسن عليه السلام الى الناس.

٥- وليس هذا فحسب وانما ثقّف الامام عليه السلام المجتمع للحفاظ على اموال الدولة والشعب وعدم العبث بها أو بطرق ايصالها الى مستحقيها، وهي ثقافة مهمة جدا" لكون غيابها يمثل المحرك الاساس للفساد وعدم النزاهة، فقد اوصى الإمام علي (ع) عماله بالقول ((من استهان بالأمانة ورتع في الخيانة، ولم ينزه دينه ونفسه عنها، فقد احل نفسه الذل والخزي في الدنيا، وهو في الآخرة أذل وأخزى))[٤]، ولا ننسى ان هذ الكلام ينسجم مع قوله تعالى ((إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها. . .))[٥]، ونفهم من كلام الامام علي عليه السلام عدة امور:

أ- أن الامانة التي ذكرها الامام هي لفظ عام عن كل ما يؤتمن عليه الانسان ولا شك ان اموال الشعب والوطن اولها.

ب- انه عليه السلام قرن بين الاستهانة بالأمانة وبين الخيانة وهو امر يثير اكثر من تساؤل عن نظرة الامام عليه السلام الشديدة لمن يقومون بهكذا اعمال.

ج- أن الامام عليه السلام بيّن عاقبة المتهاونين بهذه الاموال وعقوبتهم الدنيوية التي تتعلق بالنظرة والسمعة السيئة وربما استعجال العقوبة المباشرة، وايضاً العقوبة الاخروية.

د- بين الامام عليه السلام دور الدين في الحفاظ على الفرد وعصمته عن تلك الاخطاء لا سيما وانه عليه السلام اشار الى ان ضعف الدين وعدم تنزيهه بهكذا اعمال هو الذي فتح الباب لتلك الاخطاء.

وقد توجه الامام علي عليه السلام الى مرحلة اخرى متقدمة من مراحل التثقيف لبناء مالي وهي بيان المفهوم السامي للاقتصاد وملحقاته المفهوم الذي نستطيع ان نسميه مفهوم واقعي اخلاقي وهو مفهوم التوسط أو الوسطية في التعامل مع المال، ويلاحظ الك من وصيته الى عامله على البصرة وصيته زياد بن أبية* ((فدع الإسراف مقتصدا، واذكر في اليوم غدا، وامسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك))[٦].

ولعل صفة زياد كوالي تحتم علينا ان نفهم المسألة على هذا الاساس أي ان وصية الامام عليه السلام لتثقيف زياد الحاكم وليس زياد الفرد بأن يتعامل مع اموال الشعب على مستوى الاعتدال والتوسط وليس على مستوى الاسراف والتبذير لان التوسط هو ابرز المعان التي يراها الامام عليه السلام لاقتصاد.

ولا نستغرب ان يكون الامام عليه السلام قد وضع بيد زياد ثقافة معينة بهدف ايصالها الى الاخرين بحكم مركزه السياسي، وايضا" يمكن قراءة الوصية من جانب اخر وهو ان الامام علي عليه السلام ربما ادرك أو وصلته اخبار ان زياد كان يسرف في انفاق الاموال بما لا يتلاءم مع طروحات ورمزية الامام علي عليه السلام.

وقد تعدى الامام في مراحله التثقيفية لبناء نظام مالي رصين الى اختيار الخبراء أو المستشارين في ذلك وقد حدد المساوئ التي قد تصيب النظام في حال تجاوز الاختصاص لان ذلك سيؤدي الى ظهور الفساد المالي وبالتالي الإداري ايضا" اذ بين ذلك في وصيته الى عامله مالك الاشتر حينما قال ((لا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جبانا يضعفك عن الأمور، ولا حريصا يزيف لك الثمرة بالجور، فان البخل والجبن والحرص غرائر شتى يجمعها سوء الظن بالله))[٧].

وإذا اردنا ان نستفيد من هذا الكلام بما يحقق البناء المالي الرصين يجب ان نتعمق في دراسته وفق المنظار الذي يعتمد على النقاط الآتية:

١- اختيار المتخصصين في النظام المالي لإدارة الأمور الحسابية ووضع ورسم السياسات المالية وعدم التخبط في ذلك.
٢- في الوقت الذي اكد به الامام على عدم التبذير فأنه يدعو الحكام إلى عدم التقتير على الشعب بل يجب ان تكون السياسة التي وضعها المتخصصون قائمة على اسس علمية ومراعية للمستحقين.
٣- ان ذكر الامام علي عليه السلام للصفات السالفة هو يمثل صورة تثقيفية للعمل وفق قوانين علمية واخلاقية وليس غرائز نفسية كحب المال وبالتالي البخل والحرص أو الجبن والخوف التي تمنع من اتخاذ القرارات الشجاعة المناسبة.

المبحث الثاني

بناء نظام إداري متكامل

من الطبيعي ان يكون النظام الإداري الناجح قائم على اساس وجود المادة الخام التي تأخذ على عاتقها هذه المهمة والتي لا تتعلق بالإداري نفسه فقط وانما بالمحيطين به ايضا" لان المشكلات غالبا" في الانظمة المتعددة تأتي من المستشارين الذين ليس لهم اختصاص لا سيما مع سوء الاستخدام الإداري لهم، ومن هنا ولبناء نظام إداري متكامل فقد اكد الامام علي عليه السلام على بناء إداري يقوم على اساس اختيار الكفاءات واصحاب المكانة الحقيقية في كل الجوانب لينظموا للإدارة حتى تكتمل الصورة اذ اكد الامام عليه السلام على الشمولية في هذا الاطار.

وقد اتضح هذا الامر في الوصية الى مالك الاشتر عامله على مصر حينما ذكر فيها ((الصق بذوي المروءات والاحساب، وأهل البيوتات السابقة، والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فأنهم جماع من الكرم، وشعب من العرف))[٨].

وبذلك فان الإمام علي (ع) اراد خلق جو من الشمولية والرضا لجميع فئات المجتمع ولكن بشرط مراعاة الاختصاص في بناء المجلس الخاص بالحاكم وان كان هو صاحب الحكم، ويمكن ان نقسم الفئات التي ذكرها الامام عليه السلام الى:

١. اختيار اكثر الناس اخلاقا" ممن لا يتعدى على غيره ويكون مقاتل في سبيل ارضاء الناس وخدمتهم.
٢. اختيار اصحاب النسب الذي لا يشكل عليه الشرع والناس لان اصحابه يكونون ابلغ في التأثير بالغير.
٣. اصحاب التأثير في المجتمع ممن يملكون اداة التأثير كأن يكون وجه اجتماعي أو قبلي أو ما الى ذلك.
٤. اصحاب الخبرة ممن كان له سوابق سواء في ميدان العمل الإداري أو الاجتماعي أو الاقتصادي وما شاكل ذلك.
٥. الارتكاز على الوجوه المعروفة بالخدمة والايثار للحاجة اليهم.
٦. التأكيد على المعروفين بشجاعتهم للحاجة اليهم في بعض الظروف الصعبة التي تمر على الدولة.
٧. الحاجة الى اهل السخاء والكرم للاستناد اليهم في بعض الاحيان لمساعدة الناس بالحق أو المساهمة في بناء الدولة.

وهنا نلاحظ ان ما ذكرناه عن الدور التكاملي في بناء النظام الإداري الرصين الذي اراده الامام علي عليه السلام واضح جداً ويفصح عن نفسه باجلى صوره ومن هنا نستطيع ان نفسر سبب نجاحه عليه السلام في إدارة الدولة لا سيما وان فكره في اختيار الاشخاص المناسبين كان حاضراً بقوة.

وربما ليس من المبالغة القول بأن الجانب المعنوي الذي اتخذه الامام علي عليه السلام بتثقيف المجتمع نحو صورة إدارية مثالية يمكن ان يعد دستور ينطلق منه العمل الإداري ، فعندما نقول بناء إداري متكامل فأننا نعني جمع الجوانب المادية مع المعنوية والاخلاقية لان الامام عليه السلام اراد ان يبني الشخصية اولا" وهي مادة الإدارة فهو عليه السلام يحدد في وصيته إلى ابنيه الحسن والحسين عليهما السلام الاطر الاخلاقية والقانونية للتعامل مع الناس وحكمهم بالحق اذ يقول عليه السلام((قولا بالحق، واعملا للأجر، وكونا للظالم خصما، وللمظلوم عونا))[٩] وهذا هو امر الله تعالى ((إن الله يأمر بالعدل والإحسان. . .))[١٠].

وتقوم هذه الوصية على ما يآتي:

١- ان يكون الحاكم أو المتولي على الناس صادقا" معهم ومع نفسه لا ان يسير بلغة السياسة التي ترى ان الهدف هو المصلحة.

٢- ان يعمل الحاكم ليخدم غيره وليكسب رضا خالقه ورضا الناس لا ان يعمل لرضا حاشيته وللأجر الدنيوي واستحصال اكبر قدر من المكاسب.

٣- ان يكون شجاعا" في رد الظلم عن الناس ولا يخشى في الله لومة لائم، وان يكون خصم لمن يعبث بمقدرات البلد وبأرواح وممتلكات الافراد.

٤- قصد الامام عليه السلام من توصية ابناءه اعدادهم للقيادة والفات نظر الناس الى ذلك حتى، وايضا" ارسال رساله من خلالهم الى المجتمعات لا سيما اذا ما علمنا ان الامامين الحسن والحسين عليهما السلام قد مثلوا الرسول صلى الله عليه واله والإمام علي عليه السلام.

وفي مقابل ذلك فأن رسائل الامام عليه السلام ووصاياه تثقف وتؤطر لمنع الاستبداد في الحكم وتضع الحاكم بصورته التي يمثلها فهو ليس الا فرد من الافراد لذا نجده عليه السلام يخاطب الأشعث بن قيس موصياً له ((ليس لك أن تفتات في رعية))[١١].

ويظهر من هذا الكلام أمور:

١- قوله (ليس لك) أي ليس من صلاحياتك الإدارية ان تتعامل مع الشعب الا بالقانون أو الدستور.

٢- ايضا" فأن هذه الكلمة تعني ان الإداري أو الحاكم لا يتميز عن الاخرين الا وفق مفهوم المواطنة والصلاحية الإداري التي تعطي النظام الضوابط التي يسير عليها.

٣- الامام عليه السلام وجه هنا رسالة خاصة وعامة فهي خاصة للاشعث الذي يبدو انه اساء السيرة وعامة لكل المشمولين بمصطلح الإداري ين أو الحكام.

وقد ترجم الامام عليه السلام هذا الكلام بوصيه الى ابنه الحسن عليه السلام عن كيفية التعامل مع الاخرين بحيث تكون شخصيته هي الميزان في هذا التعامل ولا يوضع أي اعتبار لأمور اخرى اذ قال عليه السلام ((اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك))[١٢].

وهذا الطرح يعني في جملة ما يعنيه:

١- الارتكاز على مبدأ المساواة بين الناس وان ينظر الحاكم أو الإداري الى المسألة من هذا المنظار.

٢- ان يضع الإداري أو الحاكم نفسه اداة قياس في التعامل مع الاخرين حتى لا يخرج عن نطاق الانسانية اولا" وشروط المواطنة ثانيا"

٣- ان يكون التعامل عفويا" لا تعترضه الحواجز والموانع والمقامات.

بيد ان هذه المساواة هي ليست مطلقة فالإمام علي عليه السلام لا يتكلم بمنطق العشوائية فربما يأتي اناس ويساوون بين المستحقين وغير المستحقين لمجرد تحقيق المساواة وهذا جزء من الفساد الإداري ايضا" وانما نجد ان الامام علي عليه السلام حدد الشروط أو الحالات التي لا يمكن فيها تطبيق هذا النوع من المساواة وكان هذا واضحا" في وصيته الى مالك الاشتر عندما قال ((لا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء))[١٣].

إذا" فالمساواة هي ليست مطلقة فليس من المعقول ان يكون كل الشعب محسن أو يكون كله مسيء ومنم ثم ليس من المعقول ان ينظر الحاكم أو الإداري بعين المساواة لهم وانما يجب ان يعطي كل ذي حق حقه وهنا تكون المساواة كما يريد الامام علي عليه السلام بأن يعاقب المسيء ويؤجر المحسن الذي يخدم بلده.

ثانياً/ الاستناد على النظم الدينية والاخلاقية في ترسيخ نظام الجودة

المبحث الأول

أسلوب التعامل مع المحكومين

من المعلوم ان الامام علي عليه السلام وكما مر قد حدد اطر بناء النظام المالي والإداري وهنا نجده قد أكد على مرحلة اخرى تتعلق بالطريقة والأسلوب في الحكم أو في التعامل مع المحكومين، بل انه عليه السلام حدد حتى الأصناف التي ينبغي على الحاكم ان يراعيها اذ ان تقسيمه لهذه الأصناف قد اخرج مسألة وضعه الضوابط الخاصة بالجودة الى مرحلة التطبيق العملي لها فقد اوصى عماله قائلاً ((الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى فان في هذه الطبقة فاتحا ومعترا))[١٤].

ولا يعني هذا التقسيم المرحلي لنماذج الفئات ان الامام عليه السلام هو الذي وضعها كطبقة في الدرجة السفلى على الرغم من ان الإسلام ليس طبقي، ويمكن تفسير كلام الامام علي عليه السلام من هذه الناحية بما يآتي:

١- أن الامام عليه السلام لم يعرض الامر بمعرض الإقرار وإنما بمعرض الاستهجان ومحاولة وضع الحلول.

٢- أن قول الامام عليه السلام ان هؤلاء لا حيلة لهم دليل على رفضه وضعهم المعاشي والاجتماعي الناجم من تقصير الادارة.

٣- ان وصيته الى عماله بمراعاة هذه الفئة دليل على استهجانه الطبقية ورفضه التمييز بين ابناء المجتمع على اختلافهم.

اما على سبيل بيان الهدف والمغزى من الامر فقد تحددت الصور الخاصة بأسلوب تعامل الحكام أو الإداري ين مع المحكومين حسب كلام الامام عليه السلام بما يآتي:

١- ان يتوجه الإداري لمساواة الرعية ويبدأ برفع الحيف عن الفقراء والمحتاجين لانهم اكثر المتضررين.

٢- في الوصية اشارة الى ان سوء الإدارة تجعل الوضع يسير نحو الطبقية، وان معالجة ذلك بالتوجه للطبقة السفلى ومعالجة امرها لأنها لا حيلة لها.

٣- لم تقتصر الطبقة التي اشار اليها الامام علي عليه السلام على صنف واحد من أصناف المجتمع وانما عدد من الأصناف في اشارة الى ان المتضررين من الإدارة السيئة يشكلون في الغالب النسبة الاكبر.

٤- ان ما اوصى به الامام عليه السلام يعد تشخيص مهم للخلل في الإدارة وهو في الوقت نفسه علاج ومنهج إداري سليم.

ومواصلة للأسلوب المرحلي في معالجة المشكلات التي تصيب المجتمع بتحديد الأسلوب الامثل في التعامل مع المحكومين نجد ان الامام ذكر النوع الاخر من أصناف المجتمع التي ينبغي ان يلتفت اليها الإداري وهم من لا معيل له،

ومن لا يقدر على الاعالة اذ قال الامام عليه السلام في وصيته لمالك الاشتر عامله على مصر ((تعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له))[١٥].

وإذا ما اردنا بيان الاسباب أو فلسفة وصية الامام علي عليه السلام بمراعاة هذه الأصناف ومقارنتها بالأصناف السابقة يجب ان نحدد هذا الامر بما يآتي:

١- انه عليه السلام دعا الإداري ين أو الحكام الى مراعاة هذه الأصناف بسبب:

أ- ان منهم من لا معيل له بسبب صغر السن ووفاة هذا المعيل.

ب – منهم من هو كبير السن ولكن غير متمكن من العمل بل يحتاج الى الاعالة.

٢- ان الامام عليه السلام وصف هذه الفئات بقلة الحيلة أي انها تحتاج الى رعاية الدولة اكثر من غيرها.

٣- هناك عامل مشترك بين من ذكرهم الامام عليه السلام فيما سبق من الأصناف وبين هذين الصنفين وهذا العامل هو قلة الحيلة وضعف الحال والحاجة الى الرعاية.

ونفهم مما مر ان الامام عليه السلام وضع قواعد اصلاحية في الإدارة وهي في الوقت الذي كانت فيه قواعد اصلاح فهي نقاط تشخيص خلل وهي ادوات لمحاربة الفساد الإداري ومحاربة الطبقية التي حاربها الإسلام.

اما فيما يتعلق بنوعية التعامل التي يريدها الامام علي عليه السلام للحاكم أو الإداري الناجح مع من يحكمهم فأنه يحددها بصور متعددة وضعها كضوابط لعماله واساسيات يسيرون عليها ويعمل بها الإداري الذي يسير وفق دستور قائم على الجودة وليس العشوائية والكيفية.

وابرز هذه الأمور مسألة تقبل الإداري للنقد والعمل على ترتيب اثار ايجابية له وهو الامر الذي اشار اليه الامام عليه السلام بوصيته لمالك الاشتر عامله على مصر ((إن ظنت الرعية بك حيفا، فاصحر لهم بعذرك، واعدل عنك ظنونهم باصحارك، فان في ذلك رياضة منك لنفسك، ورفقا برعيتك، وأعذارا تبلغ به حاجتك من تصويحهم عن الحق))[١٦]، وعلى ما يظهر فأن الامام عليه السلام اراد ان يؤسس لبناء تكاملي للنظام الإداري فيه الرأي والرأي الاخر حتى وان تعلق الامر بالحاكم نفسه أو بالإداري ، اذ يقوم البناء الذي ذكره الامام عليه السلام في الوصية السابقة على ما يآتي:

١- التجاوب مع المحكومين والتنزل لرأيهم بل والاعتذار لهم في حال ظنهم بوقوع الظلم عليهم من الحاكم أو الإداري.

٢- التواضع امام الناس واثبات عكس ظنونهم أو معالجة الموقف بما يرضيهم من الحلول.

٣- زرع الثقة بين الحاكم أو الإداري والمحكومين وتذكير الحاكم بموقعه وضرورة زرع الثقة بنفسه اولا" وبينه وبين الاخرين ثانياً.

الامر الاخر الذي رسمه الامام عليه السلام حول تعامل الحاكم مع المحكومين هو الاتصال بهم وسماعهم وهو الامر الذي يمكن عده الطريقة التي اراد بها الامام عليه السلام ايصال الحاجات للأصناف التي ذكرناها سابقا"، والوسيلة لايصال النقد الى الدولة والإدارة وذلك بجملة ضوابط حددها عليه السلام بوصيته الى عامله على مصر مالك الاشتر ((اجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلسا عاما، فتواضع فيه لله الذي خلقك، ونحي عنهم جندك وأعوانك من حراسك واشراطك))[١٧].

وهذه الضوابط تتمحور في ما يآتي:

١- التفرغ لقضاء حاجات الناس في وقت محدد لهم. ويتم ذلك وفق عدة شروط:

أ- الحضور الشخصي من الحاكم.

ب-الجلوس بمجلس عام وليس شخصي أو فئوي.

ت-التواضع من الحاكم مع رعيته وهو تواضع لله اولا" واخيرا".

ث- عدم اظهار القوة ضدهم وترك المظاهر المسلحة والاحتجاب عن المحكومين بشرطة أو ما شابه.

٢- ان الامام عليه السلام وعلى ما يبدو قد اكد مرة اخرى على اصحاب الحاجات لضمان عدم وجود الطبقية.

ويطرح الامام عليه السلام قضية مهمة في هذا الاطار حول كيفية التعامل مع المحكومين من الحاكم والأسلوب الامثل للمعاملة في وصية أوصى بها ابنه الحسن عليهما السلام بقوله ((أحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك))[١٨].

وقد اكد الامام عليه السلام هنا على أمور ايضاً:

١- أكد مرة اخرى على المساواة والتواضع من الحاكم مع المحكومين وكأنه شخص منهم لا يختلف في شيء.

٢- يجب ان يطبق الإداري أو الحاكم على المحكومين ما يحب ان يطبق عليه ويترك ما يكره تطبيقه عليه نفسه فيكون هو الميزان كما مر سابقا".

٣- ايضاً يجب ان يكره الظلم على الناس بمقدار كرهه للظلم الذي يقع عليه، ويحسن للمحكومين بمقدار حبه للإحسان عليه.

المبحث الثاني

طبيعة الحكم وأسلوب الإدارة الناجح

قد يكون كل الذي مر سابقا" يصدق عليه دراسة طبيعة الحكم عند الامام علي عليه السلام في رسائل نهج البلاغة وبكل تفاصيله غير ان هناك صور تمثل منهاج ودستور للحكم تستحق ان نفرد لها جانبا" خاصا" بها وان ندعو لقراءتها قراءة موضوعية لتعم الفائدة.

وقد حدد الامام عليه السلام مسار الإدارة الناجحة في اكثر من مناسبة ويمكن الاطلاع على ذلك من رسالته الى بعض عماله اذ اوصى عليه السلام بالقول في طريقة الحكم وأسلوب الإدارة الناجح ((ألبس لهم جلبابا من اللين تشوبه بطرف من الشدة وداول لهم بين القسوة والرأفة وامزج لهم بين التقريب والإدناء، والإبعاد والإقصاء[١٩].

وعليه فأن القواعد التي اراد الامام عليه السلام تثبيتها وتسجيلها واطلاع الحاكم أو العامل آنذاك عليها والحاكم والإداري اليوم ايضاً هي كما يأتي:

١- المزاوجة بين اللين والشدة في التعامل مع الناس على ان يكون اللين هو الاصل وتكون الشدة في اوقات حاجتها.

٢- يحتاج الحاكم الى القسوة في مواضعها واللين في مواضعه ولا يكون الحكم على نسق واحد فيقال ان هذا الحاكم شديد أو يقال لين.

٣- تقريب الناس والمحكومين الى الحاكم ولكن بشرط عدم الاضرار بهيبة السلطة واتخاذ اجراء الابعاد في حال كانت النتائج وفق هذه النتيجة.

ان هذه المحاور التي دار عليها حديث الامام عليه السلام ان دلت على شيء فانما تدل وبشكل لا يقبل الشك على المفهوم المثالي للإدارة والحكم والقائم على اساس شخصية الحاكم والدستور الذي يسير عليه فكلما كان الشخص اكثر اتزاناً وتفاعلاً مع المحكومين كانت النتائج اقرب للجانب الايجابي.

وربما نجد ان الصورة تتوضح اكثر عن الطريقة التي يريدها الامام عليه السلام في الحكم اذا ما درسنا الوصية التي اوصى بها احد عماله اذ ان هذه الوصية عكست ابرز صور العدالة الانسانية ولا شك انها العدالة المثالية التي لا نجدها مع اشخاص اخرين في التاريخ غير رسول الله صلى الله عليه واله وابن عمه الامام علي بن ابي طالب عليه السلام الذي اوصى عامله محمد بن أبي بكر (رضوان الله عليه) بقوله ((فاخفض لهم جناحك، وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك، واس بينهم في اللفتة والنظرة))[٢٠].

وقد تكون المقاطع الاولى من الكلام قد درست كلمات وقواعد شبيهة لها على ما فيها من روح ومثل ومبادئ فيما سبق كمسألة التواضع للرعية، والنظر في حاجاتهم، والمساواة بينهم وغير ذلك من الأمور الاخرى.

بيد ان ما ورد في هذه الوصية عن مساواة الحاكم بين المحكومين حتى في اللفتة والنظرة قد تعدى حدود العقل ونقصد عقلنا القاصر لان ذلك يمثل قمة الانسانية والديمقراطية والعدالة والمساواة وما شئت من المصطلحات التي اخذت تظهر وتتباهى بها الشعوب امام المسلمين وكأن ارثهم في هذا المقام ارث يفوق الارث الإسلامي وقد نسوا أو تناسوا ان من رجالات المسلمين من وضع نظريات في الحكم وفي العدالة فهاهو الامام علي عليه السلام يطلب من ولاته ان يساووا بين رعيتهم حتى في مقدار الالتفات الى كل منهم أو النظرة اليهم حتى لا يشعر احدهم بالغبن أو الاستياء من ذلك.

الهوامش

١- نهج البلاغة ٥٠٣.

٢- ينظر الموسوي، شرح نهج البلاغة ٢٣٢.

٣- التوبة ٣٤.

٤- نهج البلاغة ٤٨٥.

٥- النساء ٥٨.

- زياد بن أبيه: من أهالي الطائف، وكان عامل الإمام علي عليه السلام على البصرة، ثم ولاه على فارس، وبعد استشهاده عليه السلام استماله معاوية بانتسابه إليه فألحقه بابيه سفيان بن حرب في سنة ٤٤هـ. ينظر: ابن خلكان وفيات الأعيان، ٣٥٦/٦؛ الزركلي، الأعلام، ٨٩/٣.

٦- نهج البلاغة ٤٧٨؛ وينظر: الراوندي، منهاج البراعة، ٥١/٣؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣٩/١٥؛ البحراني، الشرح الكبير، ٤٠٠/٤؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤٦٦/٣؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة، ٥٧/٣؛ الخوئي، منهاج البراعة، ٣٣٩/١٨؛ مغنيه، في ظلال نهج البلاغة، ٤٣٥/٣؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ١٩٣/٤، ١٩٤.

٧- نهج البلاغة ٥٤٨؛ وينظر: الراوندي، منهاج البراعة، ٥١/٢؛ ينظر، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٦٦/٨؛ البحراني، شرح الوسيط، ٢٨٩/١؛ أبو الفضل إبراهيم، شرح نهج البلاغة، ٣٠٥/١؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢٩٠/٢؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة، ٢٧/٢؛ الخوئي، منهاج البراعة، ٢٥٦/٨؛ عبده، شرح نهج البلاغة، ٢٦٧/١؛ مغنيه، في ظلال نهج البلاغة، ٣٦٩/٢؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣٨١/٢.

٨- نهج البلاغة ٢٥٢.

٩- نهج البلاغة ٥٣٨؛ وينظر: الموسوي، شرح نهج البلاغة ٣٠٩.

١٠- النحل ٩٠.

١١- نهج البلاغة ٤٦٣.

١٢- نهج البلاغة ٥٠٣.

١٣- نهج البلاغة ٥٤٩.

١٤- نهج البلاغة ٥٦١.

١٥- نهج البلاغة ٥٦١.

١٦- نهج البلاغة ٥٦٥.

١٧- نهج البلاغة ٥٦١-٥٦٢.

١٨- نهج البلاغة ٥٠٣.

١٩- نهج البلاغة ٤٧٧.

٢٠- نهج البلاغة ٤٨٥.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: المصادر والمراجع

* أنصاريان، علي (ت١٤٠٨هـ/١٩٨٧م)

- شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار للعلامة المجلسي، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي الدائرة العامة للنشر والأعلام، طهران، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م

* البحراني، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)

- شرح نهج البلاغة (المصباح، شرح الكبير)، ط٢، طهران، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٣م

- اختيار مصباح السالكين (شرح نهج البلاغة الوسيط)، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م.

* بيضون، لبيب

- تصنيف نهج البلاغة، (صححه واعتنى به محسن عقيل)، دار المحجة البيضاء، بيروت – لبنان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

* أبن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعتزلي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)

- شرح نهج البلاغة، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار أحياء التراث العربي، القاهرة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

* الخوئي، ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي

- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ط٤، مكتبة الإسلامية، طهران، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م

* الراوندي، قطب الدين أبي الحسين سعيد بن هبة الله (ت٥٧٣ هـ/١١٧٧م)

- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، مكتبة آية الله العظمى المرعشي العامة، قم، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م

* الزركلي، خير الدين

- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط٣، (د. م) (د. ت)

* الشيرازي، السيد محمد الحسيني (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)

- توضيح نهج البلاغة، دار تراث الشيعة، طهران، (د. ت).

* عبده، الشيح محمد

- شرح نهج البلاغة، مؤسسة الأعلمي، طهران، (د. ت).

* علي، الإمام أبن أبي طالب (ع) (ت ٤٠هـ/٦٦٠م)

- نهج البلاغة، (تحقيق صبحي الصالح)، ط١، مطبعة الرسول، إيران – قم، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

* مغنيه، الشيخ محمد جواد

- في ظلال نهج البلاغة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

*الموسوي، عباس

- شرح نهج البلاغة، بيروت، ٢٠٠٨.

ثانياً": الرسائل الجامعية

ياسر، ذكرى عواد

الفكر الاقتصادي في نهج البلاغة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة البصرة، ٢٠٠٩.